الرحلة فى سبيل العـــــلم

سئل أديب : كيف حرصك على العلم ؟ فقال : حرص المجوع الممنوع على بلوغ لذته فى المال . قيل : وكيف طلبك له ؟ قال : طلب المرأة المضـــلة ولدها وليس لها غيره ! . .

هكذا كان تعشق أسلافنا للمعرفة يحفزهم على التماسها أينما كانت ، والسعى وراءها حيثما وجدت ، يشدون إليها الرحال ، ويركبون متن كل صعب وذلول ، سواء لديهم السهل والحزن ، والبر والبحر ، والبرد والحر ! .

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

هل أتاك نبأ جابر بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بلغه وهو بالمدينة أن لدى عقبة بن عامر بمصر حديثاً فى القصاص فبادر إلى السوق واشترى بعيراً ثم شد عليه رحله وضرب به فى الأرض شهراً حتى وصل إلى مصر ولقى صاحب الحديث ، فقال له : ما الذى جاء بك ؟ قال : حديث تحدث به عن رسول الله فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك ، أردت أن أسمعه منك قبل أن أموت أو تموت ! .

ولعلك قرأت قول أبى الدرداء رضى الله عنه : « لو أعيتنى آية من كتاب الله لم أجد أحداً يفتحها على إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه » .

وكان ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يرسل من أصحابه إلى الأمصار من يقضى بين الناس ويقرئهم القرآن ويعلمهم الدين والأحكام .

ومن بعد الصحابة رضوان الله عليهم ، اقتفى التابعون لهم بإحسان أثرهم ، ونسجوا على غرارهم ، فأحبوا العلم ورحلوا إليه من أقصى الأرض إلى أقصاها ، لا يعوقهم فقر ، ولا يوهنهم خطر الطريق أو عذاب السفر !

فهذا نافع يرحل إلى مصر ليعلم الناس السنن .

وهذا عبد الرحمن ابن عنم الأشـــعرى يبعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها .

وهذا الليث بن سعد يغادر مصر إلى المدينة ليأخذ من ربيعة الرأى .

وهذا الاوزاعى يلتقى بعطاء بن أبى رباح وابن شهاب الزهرى بمكة ويأخذ عنهما ، ثم يرحل إلى البصرة ليأخذ عن شيوخها ، ثم يلقى عصا التسيار بالشام ليبث فيها علومه وفقهه .

وهذا عبد الله بن وهب (المصرى) يرحل إلى المدينة ليصحب مالكا حتى يموت ثم يعود إلى مصر لينشر فقه مالك ويتخرج على يده جهابذة علماء المالكية .

وهذا الشافعى يرحل من مكة إلى المدينة ليتتلمذ على مالك ، ثم إلى العراق ليلتقى بأصحاب أبى حنيفة ، وأخيراً إلى مصر ليؤسس فيها مدرسته .

وهذا يحيى بن يحيى الليثى (الأندلسى النشأة) يرحل فى شبابه إلى المدينة ليسمع من مالك ، ثم إلى مكة ليسمع من سفيان بن عيينة ، ثم إلى مصر ليسمع من الليث بن سعد وغيره . .

وهذا البخارى يمعن فى الرحلة لطلب العلم وتلقى الأحاديث فيرحل إلى بلخ وإلى مرو ونيسابور ، وإلى الرى والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والمدينة ومصر ودمشق وحمص وقيسارية وعسقلان !

والخليل بن أحمد والأصمعى وأبو عمرو بن العلاء يرحلون إلى البادية ويقيدون عن أهلها العلم والأدب .

ولو أننى أطلقت العنان للقلم ليسترسل فى ضرب الأمثلة من رحلات علمائنا الأخيار وأئمتنا الأبرار ، أو انتقلت بك إلى بلاد الغرب وطوفنا مع علمائها من أثينا إلى روما إلى الاسكندرية إلى معاهد الأندلس ، وتنقلنا فى مختلف العصور من لدن سقراط ومدرسته الفلسفية وذكرنا

رحلات المؤرخ هيردوت ثم وصلنا إلى عصر المأمون ، وانتقال تراث أوربا الثقافى إلى أيدى المسلمين ليهضموه ويخرجوه بثقافتهم العربية الإسلامية ثم يحملوه إلى أبناء أوربا بعد أن ركدت فيها ريح العلم واستولى عليها الجهل وفشت فيها الخرافات والأباطيل فينهضوا لبناء هذه الحضارة الواسعة الشاملة . .

أقول لو أنى فعلت ذلك لتشعب على البحث وطال فى المدى ، وحسبى أن أشير إلى ماللرحلات العلمية والالتقاء العلماء واستفادة بعضهم من بعض من الأثر العظيم فى تأسيس العلوم ثم بسطها واتساعها وتطورها حتى قامت الحضارات الحديثة على أساس العلوم والمخترعات .

ولقد كان للأزهر الشريف اليد الطولى والفضل الأكبر ؛ فقد حافظ على هذا التراث فى العصور الوسطى المظلمة . وبقى وحده قائماً كشعلة من النور وسط هذه الحجب الكثيفة من الجهل والظلام ، حتى إذا انتبه العالم وتطلع إلى المعرفة وحاول النهوض ؛ اضطلع الأزهر برسالته وفسح صدره لمن يقصده من طلاب العلم الذين رحلوا ويرحلون إليه من سائر أقطار العالم الإسلامى ، فيغذيهم من معارفه ، ويرضعهم من لبانه ، ويرويهم من معينه ، حتى إذا رجع الواحد إلى وطنه وأهله حمل إليهم قبساً من نوره ، وبث فيهم من ثقافته وعلومه .

ولم يقتصر الأزهر على تغذية هذه الوفود والترحيب بهم ، بل أرسل أشعة من ضيائه إلى البلدان الإسلامية وأوفد إليها من خلاصة أبنائه من يضطلعون برسالته وينشرون هناك من ثقافته .

ولقد كانت الكويت الفتية فى طليعة الركب فطلبت معارفها الرشيدة من الأزهر أن يعاونها فى إنشاء معهد علمى يدرس فيه ناشئة الكويت العلوم الدينية العربية على نمط الدراسة فى الأزهر ومعاهده فى مصر ، فبادر الأزهر إلى تلبية هذا النداء الكريم واختار اثنين من أبنائه لهذه المهمة السامية ، أحدهما فضيلة الأستاذ الشيخ على البولاقى والآخر ركاتب هذه السطور .

وقد نجحت الفكرة ، وفتح المعهد فى العام الدراسى المنصرم ، وقمنا فيه بواجب التدريس ورسم الخطط والبرامج التى تهدف إلى تحقيق أغراضه تحت إشراف مجلس المعارف الموقر وعلى ضوء توجيهاته وإرشاداته ، ولقد كان لنا من صدق رجال المعارف وصحة عزمهم ما شجعنا على مضاعفة الجهد والإخلاص فزاد الإقبال على المعهد وتشعبت الدراسة فيه مما دعا إلى الاستعانة ببعض المدرسين من إخواننا الكويتيين ، ومضاعفة عدد العلماء الأزهريين فى العام الدراسى الحاضر .

وها هو ذا المعهد يسير فى دراسته على أتم نظام وأحكمه . ويتدرج فى خطا واسعة إلى الكمال ، ويفسح صدره لشتى الثقافات ؛ ينهل منها طلابه ، ويتوسعون فى الدراسات الشرعية والعربية ، ولو أتيح لك أن تزور المعهد وتحضر درساً من دروسه ، وتستمع إلى مناقشة الطلاب وإجاباتهم ؛ لخيل إليك أنك فى صحن الأزهر مع طلابه ، أو أن قطعة من الأزهر قد انتقلت إلى الكويت ! . .

وإن من إعطاء الحق لذويه أن أسجل مالرجل المعارف ومديرها ، الأستاذ طه بك السويفى ، من يد مشكورة فى نجاح فكرة المعهد وتيسير السبل أمامنا لأداء رسالتنا الأزهرية فى المعهد الناشىء ولدى الشعب الكويتى النبيل.

كما أسجل همة المعارف ورجالها — وعلى رأسهم سعادة الشيخ عبد الله الجابر — فقد أولت المعهد جانبا كبيراً من عنايتها ، وأنفقت عن سعة عليه وعلى طلابه ، ولا يزال العمل جاريا فى بنائه الجديد فى وسط المدينة ، وإن البشائر لتدل على ما سيكون للمعهد من أثر كبير فى نهضة الكويت السريعة الفائقة .

حرس الله الكويت ، ورعاها . فى ظل عاهلها العظيم ، الشيخ أحمد الجابر ، ووفق ولاة الأمر لما فيه سعادة البلد الكريم ومجده .

محمد محمد عبد الرءوف

مبعوث الأزهر بالكويت